الأدب المغاربي المكتوب باللغة الأجنبية
السياق التاريخي و الماهية

تمهيد:

تشكل الأدب المغاربي ضمن تحولات تاريخية و تيارات حضارية ، وذلك بحكم المنطقة الجغرافية التي ينتمي إليها، و المعروف أنّها منطقة تواترت عليها الكثير من الحقب التاريخية و الأحداث و السياسات و الإيديولوجيات التي كان لها تأثير مباشر أو غير مباشر على طبيعة الإبداع ، و لكن مع التحولات التاريخية المتعاقبة و توالي الحقب الزمنية استطاع أن يأخذ لنفسه مكانة جعلت الاحتفاء به محليا و دوليا أمرا واقعا.

ما مفهوم الأدب المغاربي المكتوب باللغة الأجنبية؟

هو ذلك الأدب بأجناسه الأدبية المختلفة في التراكيب والصيغ المحددة لكل جنس أدبي، والمتفق في الرؤى والأفكار الناجمة عن تبني لغة أجنبية موحدة، لأسباب عدة أبرزها: الاستعمار، الهجرة، التكوين العلمي... ويضم الأدب المغاربي أدب شمال إفريقيا تونس والجزائر والمغرب وليبيا وموريتانيا.

إشكالية الكتابة باللغة الأجنبية

لقد أثار ت قضية الكتابة باللغة الفرنسية جدلا واسعا في انتماء هذا الأدب، هل هو أدب عر بي أم أدب فرنسي؟

إنّ الكتابة باللسان الأجنبي لم تقتصر على كتاب المغرب العربي فقط، فنجد في المشرق من كتبوا بلغة أجنبية خلال تواجدهم في بلدان الغرب وتعلمهم لغتهم، وبالتالي التعبير عن واقع بلدانهم الأصلية بهذه اللغة، وآخرون أجبرهم تكوينهم التعليمي منذ البداية إتقان اللغة الأجنبية أكثر من العربية، ومن بين هؤلاء جبران خليل جبران و جورج حنين.

و لم تقتصر الظاهرة على الأدب العربي فقط فهنالك كُتاب عالميون كانوا مزدوجي اللغة، كتبوا بلغة غير لغتهم أمثال الشاعر مُحَمَّد إقبال الذي كتب بالفارسية ، والكاتب الروسي "هنري ترويات" الذي كتب بالفرنسية، وكذلك "يوجين يونيسكو" هو الآخر كتب بها، وكتب "جيمس جويس"(ايرلندا) و"كافكا" (تشيك) بالإنجليزية، إلا أنه لم تطرح إشكالية الازدواجية اللغوية بنفس الحدة التي طرحت بها في العالم العربي، وخصوصًا في المغرب العربي.

أثر الحرب العالمية الثانية في مواضيع الكتابات الروائية المغاربية باللسان الفرنسي

مع نهاية الحرب العالمية الثانية في 1945 نلحظ ذلك التحول الواضح في مواضيع الكتابات الروائية المغاربية باللسان الفرنسي، و الجزائرية على وجه الخصوص فلقد تبددت كل الأوهام مع مجازر الثامن (8) ماي 1945 التي ارتكبها الفرنسيون في حق المتظاهرين المحتفلين الجزائريين بنصر الحلفاء وحلول الموعد مع التاريخ لتقرير مصير الشعوب..

إنّ هذه النقلة النوعية للأدب المغاربي الحديث من حيث الخصوصية و التميّز مردّها إرادة الأدباء المغاربة في كتابة أدب مغاربي يخلصهم من التبعية للمشارقة، وقد فعلوا ذلك عندما كتبوا روايات و قصائد باللغة الفرنسية، فكانت إبداعات "مُحَّد عزيزة" محمود المسعدي من تونس و " إدريس الشرايبي" و " الطاهر بن جلون" من المغرب ، ثم روايات " مولود معمري" و " مولود فرعون" و " مُحَّد ديب" و "كاتب ياسين" من الجزائر، أمبارك ولد بيروك، حبيب ولد محفوظ، عثمان موسى جاغانا، حمادي صمبا و مريم بنت الدرويش من موريتانيا.

ميلاد الأدب المغاربي المكتوب باللغة الأجنبية

لقد مثل صدور رواية " الدار الكبيرة" لمحمد ديب سنة1952 منعرجا حاسما في تطور الأدب الروائي الجزائري باللسان الفرنسي من حيث المضمون، إذ تعد "أول رواية نزلت إلى الطبقات الدنيا في المجتمع، متحدثة عن هموم البسطاء من عموم الشعب الجزائري، كما وصفت أحوالهم القاسية

ومعاناتهم من الفقر والجوع والحرمان، كما أنها أول رواية تتحدث عن النضال السياسي في الجزائر، وعن مناضلين يعيشون مطاردين من طرف البوليس الفرنسي، كما تطرح لأول مرة تساؤلات واضحة وصريحة عن الهوية الوطنية، وعن مفهوم الوطن وسط الزيف الذي كانت المدرسة الاستعمارية تنشره وتلقنه للأطفال الجزائريين في مدارسها".

ويرى بعض الدارسين أن البداية الفعلية لهذه المرحلة تنطلق من سنة 1950 ، وبالتحديد مع نشر مولود فرعون رواية " نجل الفقير" غير أن هذه الرواية، في نظر آخرين، لا تمثل هذه المرحلة حق التمثيل، لأنها "رواية تهادن المستعمر ولا تجد ضيرا في التعايش بين الأوروبيين و الأهالي.

أما عن الرواية التي مثلت هذه المرحلة بحق في نظر الفريق الأخير هي رواية " الربوة المنسية" لمولد معمري. والملاحظ هنا أن أعمال معمري كلها تسير في خط متواز مع تطور الوقائع السياسية في الجزائر،

أما روايته الأخرى "نوم العادل" فتصور البطل أرزقي الذي بدأت رحلته بالمدرسة الفرنسية في قرية جزائرية وفي هذه المدرسة تعلم كلمات مثل: المساواة العدالة، الحرية، الإنسانية. فأراد أن يعلم شعبه بأفكاره.

و هكذا بدأت تتحدد خصوصيات الكتابة الأدبية المغاربية التي جعلت من الفكر و التاريخ و المرويات التراثية الشفوية و الكتابية محاور كبرى لها محققة بذلك انزياحها النوعي عن الكتابة المشرقية.

ماهية الأدب المغاربي المكتوب باللغة الأجنبية

الملاحظ أن مصطلح الأدب المغاربي الحديث برز إلى الوجود بصفة أقرب إلى التداول في سنوات الخمسينات من القرن الماضي (ق20)، و كان هذا مع بدية حركات التحرر في العالم، و العالم العربي و اتساع رقعة المدى الثوري. وكانت أولى التجارب الروائية المغاربية الجادة التي نُشرت في ذلك الوقت، ما قامت به منشورات "لوسوي" الفرنسيةLe Seuil ضمن السلسلة الروائية Méditerranéenne، و التي أشرف على إدارتها آنذاك الفرنسي و الجزائري المولد "ايمانويل روبلس" و كانت البداية مع أعمال الجزائريين الروائية، مولود فرعون، مُحَّد ديب، مولود معمري، ثم المغربي مُحَّد خير الدين.

إنّ الأدب المغاربي ذو خصوصية واضحة بحكم وجود نماذج متميزة لهذا الأدب، نذكر مثلا القوة الفنية التي تتمتع بها أعمال الروائي المغربي الطاهر بن جلون و الجزائري ياسمينة خضرا، بالإضافة إلى التراكم الفني لأعمال أدبية هامة من صنع أدباء متميزين أمثال مولود فرعون، كاتب ياسين، محمود المسعدين مُحَّد عزيزة، و إدريس الشرايبي....

هل تعمّد الكتاب المغاربة الكتابة باللغة الأجنبية؟

كتب العديد من المغاربة أعمالهم باللغة الفرنسية و نشروها بها، فلاقت أعمالهم حرية أكبر كما ابتعدت عن رقابة المنشورات العربية إضافة إلى الأسباب التاريخية و السياسية السالف ذكرها، و اليوم هذه المفارقة التي كانت حاصلة بين أدب مكتوب باللغة العربية و آخر مكتوب باللغة الفرنسية من المنطقة الجغرافية نفسها تغيرت كثيرا، فقد قرأ المشارقة رواية " الخبز الحافي " للمغربي مُحَمَّد شكري قبل أن يكتشفها القراء المغاربة لدواعي رقابية.